

الفصل الأول

فضل التوكل

التوكل عبادة من أفضل عبادات القلوب ، وخلق من أعظم أخلاق الإيمان ، وهو - كما قال الإمام الغزالي - منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقرّبين ، بل هو - كما قال الإمام ابن القيم : « التوكل » نصف الدين ، والنصف الآخر « الإنابة » . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١) .

فإن الدين عبادة واستعانة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) والتوكل استعانة ، والإنابة عبادة .

* *

• الحاجة إلى التوكل :

وحاجة المسلم - السالك لطريق الله - إلى التوكل حاجة شديدة ، وخصوصاً في قضية « الرزق » الذي شغل عقول الناس وقلوبهم ، وأورث كثيراً منهم - بل أكثرهم - تعب البدن ، وهم النفس ، وأرق الليل ، وعناء النهار .

وربما قبل أحدهم أن يذل نفسه ، ويحني رأسه ، ويبدل كرامته ، من أجل لقمة العيش التي يحسبها أنها في يد مخلوق مثله ، إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، فحياته وحياة أولاده في قبضته ، فهو قادر - في نظره - أن يحيى ويميت كما قال « عمرو » في محاجة الخليل إبراهيم عليه السلام .

(٢) الفاتحة : ٥

(١) هود : ٨٨

بل ربما زاد أحدهم على ذلك ، فأفتى نفسه بأكل السحت ، وأخذ الرشوة ، واستباحة الربا ، وأكل المال بالباطل ، خوفاً على نفسه إذا شاخ بعد الشباب ، أو مرض بعد الصحة ، أو تعطل بعد العمل ، أو خشية على ذرية ضعفاء من بعده . وقد قال الإمام عبد الله بن المبارك : من أكل فلساً من حرام فليس بمتوكل . والمخرج من هذا كله هو الاعتصام بالتوكل على الله تعالى .

وأحوج ما يكون المسلم إلى التوكل إذا كان صاحب دعوة ، وحامل رسالة ، وطالب إصلاح ، فهو يجد في التوكل ركناً ركيناً ، وحصناً حصيناً ، يلوذ به في مواجهة طواغيت الكفر ، و« فراعنة » الظلم ، و« قوارين » البغي ، و« هوامين » الفساد . فهو ينتصر بالله ، ويستعز بالله ، ومن انتصر بالله فلن يُغلب أبداً ، ومن استغنى به فلن يفتقر أبداً ، ومن استعزَّ بالله فلن يذل أبداً .

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

* *

● فضل التوكل في القرآن :

ولا غرو أن عني القرآن الكريم بالتوكل ، أمراً به ، وثناءً على أهله ، وبياناً لفضله وآثاره في الدنيا والآخرة .

* أمر الله رسوله بالتوكل :

أمر الله به رسوله ﷺ في تسع آيات من كتابه :

في القرآن المكي نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ (٣) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

(٢) هود : ١٢٣

(١) آل عمران : ١٦٠

(٤) الشعراء : ٢١٧-٢٢٠

(٣) الفرقان : ٥٨

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (١) .

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله سبحانه :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٣) .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٥) .

﴿ وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٦) .

وجاء الأمر بالتوكل للرسول الكريم فى موضع عاشر ، ولكن بصيغة أخرى وهى قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٧) .

وذلك من أوائل ما نزل من القرآن ، حتى يستعين بالتوكل على الله فى حمل « القول الثقيل » الذى ألقاه الله عليه ، ومواجهة المكذبين أولى النعمة ، والصبر على ما يقولون ، وهجرهم الهجر الجميل .

كما أمر صلى الله عليه وسلم بإعلان التوكل على الله تعالى فى أكثر من آية ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٨) ، وهذا

(٣) النساء : ٨١

(٢) آل عمران : ١٥٩

(١) النمل : ٧٩

(٦) الأحزاب : ٤٨

(٥) الأحزاب : ٣

(٤) الأنفال : ٦١

(٨) الملك : ٢٩

(٧) الزمزل : ٩

فى القرآن المكى ، ومثل قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) ، وهذا فى القرآن المدنى .

ومن المعلوم أن الأوامر التى خوطب بها النبى ﷺ ، موجهة إلى كل المكلفين من أمته كذلك ، ما لم يبق هناك دليل على الخصوصية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (٢) ، ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .
فالأمر للرسول ﷺ بالتوكل أمر لأمته جميعاً به .

* أمر المؤمنين عامة بالتوكل :

وقد جاء الأمر بالتوكل للمؤمنين عامة على السنة الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى فى رد الرسل على أقوامهم : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

وجاء الأمر كذلك على لسان رجلين من أصحاب موسى يحثان قومهما على دخول الأرض المقدسة ، وعدم التهيب من الجبارين فيها : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

فجعل التوكل شرطاً لثبوت الإيمان ، والشرط ينتفى عند انتفاء المشروط ، ولا يقال : إن هذا كان شرع من قبلنا ، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم

(٣) النحل : ١٢٥

(٢) التوبة : ١٠٣

(١) التوبة : ١٢٩

(٦) المائدة : ٢٣

(٥) إبراهيم : ١١

(٤) هود : ١١٤

متحدياً : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ * من دونه ،
فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴿ (١) .

وقال تعالى على لسان إبراهيم والذين معه ، الذين تبرؤوا من قومهم ومما
يعبدون من دون الله : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ (٢) .

وقال سبحانه على لسان شعيب : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ،
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ﴿ (٣) .

وقال في شأن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴾ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ (٤) .

* القرآن بين آثار التوكل :

وقد جعل الله تعالى الإيمان شرطاً للتوكل في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ (٥) والمعلق على شرط ينتفى بانتفائه ، فإذا انتفى التوكل
انتفى الإيمان .

وقال تعالى في بيان أثر التوكل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ﴿ (٦) ،
فجعل نفسه تعالى جزاء للمتوكل وأنه كافي وحسبه ، وكفى بهذا فضلاً ، فقد
قال في السورة نفسها : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ ﴿ (٧) ، فجعل
لها جزاء معلوماً ، وجعل نفسه تعالى حسب المتوكل وكافيه .

كما أخبر تعالى أنه : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ﴿ (٨) ، وأي درجة أعلى من
درجة من يحبه الله عزَّ وجلَّ ؟ قال الغزالي : وأعظم بمقام موسوم بحبة الله
تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى لملاسه ، فمن الله تعالى وحسبه وكافيه ،

(٣) هود : ٨٨

(٢) الممتحنة : ٤

(١) هود : ٥٤ - ٥٦

(٦) الطلاق : ٣

(٥) المائدة : ٢٣

(٤) يونس : ٨٤ - ٨٦

(٨) آل عمران : ١٥٩

(٧) الطلاق : ٢

ومحبه وراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم (١) فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب .

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (٢) فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل ، هو المكذب بهذه الآية ، كما يقول الغزالي ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) ، أى « عزيز » لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجانبه ، والتجأ إلى ذمامه وحمائه ، و« حكيم » لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ ﴾ (٤) ، فيبين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه !؟

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ (٥) .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦) .

قال الإمام الغزالي : وكل ما ذكر في القرآن من « التوحيد » فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهار (٧) .

* * *

(١) وفي هذا رد على العلامة الهروي صاحب « منازل السائرين » فى قوله : إنه من أوهى السبل عند الخاصة ، وإن كان من أصعب المنازل على العامة ، وقد رد عليه ابن القيم فى « المدارج » فأحسن وأفاد ، رحمهما الله .

(٢) الزمر : ٣٦ (٣) الأنفال : ٤٩ (٤) الأعراف : ١٩٤

(٥) العنكبوت : ١٧ (٦) المنافقون : ٧

(٧) انظر : إحياء علوم الدين (٢٤٣/٤ ، ٢٤٤) طبع دار المعرفة ، بيروت .

● فضل التوكل في السنَّة :

وفى الصحيحين فى حديث السبعين الفأ الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة ، وُصِفوا بأنهم : « هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يتطَيرون ، ولا يكتون ، وعلى ربهم يتوكلون » (١) .

وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت . وعليك توكلت . وإليك أنبت ، وبك خاصمت . اللهم إني أعوذ بعزتك - لا إله إلا أنت - أن تضلني . أنت الحى الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون » (٢) .

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماساً ، وتروح بطاناً » (٣) . ومعنى «خماساً» أى فارغة البطون .

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ - يعنى إذا خرج من بيته - بِسْمِ اللَّهِ . تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، يُقَالُ لَهُ : هُدَيْتُ وَوُقِّيتُ وَكُفِّيتُ . فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدِي وَكُفِّي وَوُقِّي ؟ » (٤) .

وفى سنن أبى داود عن أبى مالك الأشعري مرفوعاً : « إذا ولج الرجل بيته ، فليقل : اللَّهُمَّ أسألك خير المولج ، وخير المخرج . بسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليُسَلِّم على أهله » (٥) .

* * *

-
- (١) رواه البخارى فى الطب ، ومسلم فى السلام عن ابن عباس .
(٢) رواه مسلم عن ابن عباس . صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٣٠٩) .
(٣) رواه الترمذى فى « أبواب الزهد » برقم (٢٣٤٥) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه برقم (٤١٦٤) ، وأحمد فى مسند عمر برقم (٢٠٥) ، وقال الشيخ شاکر : إسناده صحيح ، وابن حبان فى صحيحه « الإحسان » برقم (٧٣٠) وقال محققه : سنده جيد ، والحاكم فى المستدرک (٢١٨/٤) .
(٤) رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٩٠) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٢) وقال : حسن صحيح غريب ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً .
(٥) رواه أبو داود فى « الأدب » (٥٠٩٢) .